

عبقرية الشريف الرضى

للدكتور زكي مبارك

« قبل نهاية هذا الشهر يصدر في بغداد كتاب في جرائن الدكتور زكي مبارك . وهذه فاتحة ذلك الكتاب ، وهي شرح مذهب المؤلف في دراسة الأدب العربي وتاريخه في التأليف »

أما بعد فهذا كتاب « عبقرية الشريف الرضى » وما أقول إلى شغلت به نفسى سنة كما قلت يوم أخرجت شرح « الرسالة المذراء » ، ولا سبع سنين كما قلت يوم أخرجت كتاب « النثر الفنى » ، ولا تسع سنين كما سأقول بأذن الله يوم أخرج كتاب « النصوص الإسلامى »

فما شغلت نفسى بكتابى هذا غير خمسة أشهر . ولكنها من أشهر بغداد لا أشهر القاهرة ولا باريس . وما كان لى في بغداد لهو ولا فتون ، فكانت الليلة في بغداد كلية القدر ، خير من ألف شهر ، والتوفيق من أشرف الأرزاق

وكتابى هذا هو مجموعة المحاضرات التى ألقيتها في قاعة كلية الحقوق ، وكانت تلك المحاضرات من أشهر المواسم في حياتى ، فقد كان أصدقاؤى يخشون أن يعل الجمهور بعد أسبوع أو أسبوعين ، ولكن الجمهور كان يزداد إقباله من أسبوع إلى أسبوع ، ولم ينقضى منه غير التصريح بأنى أنفقت كل ما كنت أملك ، ولم يبق إلا أن أستريح !

ومحاضراتى بكلية الحقوق في بغداد هى الموسم الثانى بعد محاضراتى عن « المذاهب النبوية » وهى المحاضرات التى ألقيتها باسم الجامعة المصرية في قاعة الجمعية الجغرافية بالقاهرة ، فهل يتسع العمر لموسم ثالث في القاهرة أو في بغداد ؟

لا تسألونى كيف ظلمت نفسى فأعددت هذه المحاضرات وأنشأت معها مقالات كثيرة جداً نشرتها صحف مصر ولبنان والعراق ورجعت الحياة الأدبية في بغداد رجاً عتيقاً ، فذلك كان أقل ما يجب أن أصنع في مقابل الثقة التى نرفتى بها حكومة العراق ؛ وذلك كان أقل ما يجب

أن أصنع لأحفظ لنفسى مكاناً بين الأساتذة المصريين الذين تشرّفوا بخدمة العراق من أمثال محمد عبد العزيز واحمد حسن الزيات والسنهورى وعبد الوهاب عزام ومحمود عزيمى ؛ وذلك كان أقل ما يجب أن أصنع في خدمة تلاميذى وتلميذاتى في بغداد ، وقد رأيت في وجوههم وجوه أبنائى وبناتى فكلفت نفسى في خدمتهم فوق ما أطيق

لا تسألونى كيف ظلمت نفسى فأنفقت من العافية ما أنفقت ؟ — وقد ساءنى أن أعرف أن « دار المعلمين المالية » لها في بغداد تاريخ ، فكانت تفتح ثم تغلق ، وتفتح ثم تغلق ، فاستعنت الله وانفتحت بمطف معالى وزير المعارف الأستاذ محمد رضا الشيبى وأريحية الأستاذ طه الراوى ومودة الدكتور فاضل جمالى ، وعولت على همه زميلى وصديقى الدكتور متى عقراوى ، وأقتالدار المعلمين المالية أساساً من متين التقاليد الجامعية ، فأغنيتنا مكتبتهما بالمؤلفات القديمة والحديثة وعلمنا طلابها كيف يبحثون ويراجعون ، وغرسنا فيهم الشوق إلى التحقيق والاستقصاء

ورأيت أن يكون من تقاليد هذا المعهد العالى أن يخرج في كل سنة كتاباً عن شاعر أو أديب أو مفكر لم يدرسه أحد من قبل ، فألفت كتابى هذا عن الشريف الرضى . فإن ترفقت شواغلى بمصر وأذنت لى بالرجوع إلى بغداد فساخرج في كل سنة كتاباً جديداً . وإن أبت تلك الشواغل أن أمتع مرة ثانية بالاستعباح بظلام الليل في بغداد فسيذكر من يخلفنى أنى طوقت عنقه بطوق من حديد ، وأن لا مفرله من أن يشقى في سبيل « دار المعلمين المالية » كما شقيت

وإنما نصمت على هذه الممانى في مقدمة هذا الكتاب لأجتندي العطف على « دار المعلمين المالية » . ومن أجتنديه ؟ من حكومة العراق ، فليجوز أن يخلق هذا المعهد ، وإنما يجب أن تبذل الجهود ليصبح منافساً قوياً لكلية الآداب بالجامعة المصرية

قد يقول قوم من خلق الله : ولماذا ابتدأت بالشريف الرضى ! إن قالوا ذلك فالجواب عند الأستاذ عباس محمود العقاد ، فهو يذكر جيداً أننى قلت له يوم أخرج كتابه عن ابن الرومى : كان الأفضل يا أستاذ أن تنفق هذا الجهد في دراسة أشما الشريف الرضى

إن قالوا ذلك فالجواب عند الأستاذ الدكتور طه حسين ،
فهو يذكر جيداً أني نهته إلى أن الاهتمام بدراسة شعر الشريف
الرضي كان أولى من الاهتمام بدراسة شعراء القرن الثالث

إن قالوا ذلك فالجواب عند نادي الموظفين بالقاهرة فقد طلب
في سنة ١٩٣٢ أن ألقى محاضرة عن أعظم شاعر في اللغة العربية
فدعوت محاضرتي من الشريف الرضي

ابتدأت بالشريف الرضي على غير موعده ، فقد رأيتني فجأة
بين دجلة والفرات ، فتذكرت أن قد جاء الأوان لدراسة هذا
الشاعر الذي تمصبت له منذ أعوام طوال

ويشهد الله وهو خير الحاكمين أني لم أفكر في إنصاف
الشريف الرضي إلا يوم قدم لي الدكتور شريف عسيران نسخة
من كتاب الأستاذ المقدمي عن أصراء الشعر في العصر العباسي ،
فأزعمني أن يهتم بآب المعز وينسي الشريف الرضي ، مع أن ديوان
ابن المعز لا يساوي قصيدة واحدة من قصائد الشريف

فمن شاء له هواه أن يزعم أن لي غاية في التعصب للشريف
الرضي فليتيق الله في نفسه ، وليذكر أن الدكتور زكي مبارك لو
كان أنفق نشاطه في الاتجار بالتراب لأصبح من كبار الأغنياء ،
ولكنه بلا أسف سيموت فقيراً لأنه أنفق نشاطه في خدمة
الأدب العربي

والأدب العربي خليف بأن يكون له شهداء ، وأنا في طبيعة
أولئك الشهداء

سيرى قراء هذا الكتاب أنني جمعت الشريف أخف شاعر
عرفته اللغة العربية ، وقد سمع بذلك ناس فذهبوا يقولون في
جرائد بغداد : أليكون الشريف أشعر من المتنبي ؟

وأستطيع أن أجيب بأن الشريف في كتابي أشعر من المتنبي
في أي كتاب . لن يكون المتنبي أشعر من الشريف إلا يوم
أؤلف عنه كتاباً مثل هذا الكتاب . والقول الفصل في هذه
القضية أن المتنبي في باب أشعر من الشريف ، والشريف في باب
أشعر من المتنبي ، وكل عبقرى هو في ذاته أعظم الناس لأن ميدانه
لا يجاريه فيه أحد سواء ، والشريف بهذا المعنى أخف الشعراء
لأنه جرى في ميادين سيظل فارسها السباق على مدى الأجيال

وما الذي يضر أنصار المتنبي حين أقدم عليه الشريف ؟
هل فهم من يحفظ ديوان المتنبي كما أحفظ ديوان المتنبي ؟
إن سجلات كلية الآداب بالجامعة المصرية تشهد بأنني كنت

أول من دعا إلى الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة المتنبي ، ولي
على ذلك شهود منهم الشيخ السكندري والأستاذ عباس محمود
والدكتور منصور فهمي

وما الذي يضر أهل العراق من أن أهتم بشاعر لا يعرف
العراقيون موضع قبره على التحقيق ؟ أليس من العجائب أن يعرف
العراقيون قبر معروف الكرخي ويجهلوا قبر الشريف الرضي ؟
إن هذا هو الشاهد على أن الموام أحفظ للجميل من
الخواص

إن كان خصومي في بغداد دهشوا من أن أتعصب لشاعر
رضي عنه ناس وغضب عليه ناس فليذكروا أنني كنت كذلك
طول حياتي فوضعت بالنقد قوماً ورفضت آخرين ، وفقاً للحق
لا طوعاً ولا إكراهاً

وأما والله راض بأن يفضب علي أهل بغداد ، فقد غضبوا
على أبي طالب المكي فنحوه الخلود

أنا أحب الخصومات لأنها تدكي عزمي ، ومن أجل هذا
أنظر نظر الجرح إلى مصير خصوماتي في بغداد ، فلن يكون لي
في بغداد خصوم بعد ظهور هذا الكتاب ؛ وإنه لقادر على أن
يفجر العطف في القلوب المنحوتة من الجلاميد . سيذكر أدباء
بغداد أنني أحببت شاعراً هو من روعة العروبة وثروة العراق .
سيذكر أدباء بغداد أنني وفيت لمدينتهم السجيرة حين اهتممت
بشاعر كان أصدق من عرف النعيم والبؤس فوق ترى بغداد
وكتابي هذا تطبيق لما شرعت من قواعد النقد الأدبي ، تلك
القواعد التي أذعتها في كتاب (الموازنة بين الشعراء) ، وهو من
أجل هذا لون جديد في اللغة العربية . وسيكون له تأثير شديد
في توجيه الدراسات الأدبية ، وقد يصلح ما أفسد الزمان من
عقول الباحثين

وبيان ذلك أني لم أقف من الشاعر الذي أدرسه موقف
الأستاذ من التلميذ كما يفعل المتحذلقون ، وإنما وقفت منه موقف
الصديق من الصديق . والتشابه بيني وبين الشريف الرضي عظيم
جداً ؛ ولو خرج من قبره لعاتبني معانقة الشفيق للشفيق ، فقد
عاني في حياته ما عانيت في حياتي : كافح في سبيل المجد ما كافح
وجعله قومه وزمانه ، وكأخفت في سبيل المجد ما كأخفت وجهي
قومي وزماني



سألني الأستاذ أحمد أمين من أيام عن فكرة غريبة قال إنها جالت بخاطره ؛ وخاطره هذا كنز لا يفنى من الأفكار الغريبة . قال :

« ترى ماذا يفعل الانسان إذا علم أنه سيموت بعد عام ؟ »
فقلت له : الجواب يتوقف على معرفة نوع هذا الانسان وطبيعته وعلمه

فقال : « أنا وأنت مثلاً . ماذا كنا نصنع ؟ »

فأجبت على الفور :

أنا وأنت ؟ كنا نتكبد في الحال على التأليف والكتابة ليل نهار . فقال في دهشة :

— كنت أحسبك تقول العكس ، وترى أن قرب الموت قد يجعلنا نطلق العمل ونفزع إلى حياة الفؤ والتمتع ، أو على الأقل حياة الهدوء والراحة

— نحن يا صديقي نفعل ما يفعله كل أب بار . فما الذي يصنعه الأب البار بأبنائه حيناً يدنو منه الموت ؟ ألا يتمنى أن يتركهم وقد اكتمل نضجهم ؟ ألا يفكر ليل نهار في إتمام تربية هذه الأكياد حتى تقوى على المشي فوق الأرض ؟ وأنا وأنت لسنا أكثر من آباء ، لنا أكباد تمشي لا على الأرض ... لكن على الورق فكيف نموت وفي خزائن أحدنا صفحات من كتاب لم يكتمل في « ضحى الإسلام »

أو في « النقد الأدبي » ، وعلى مكتب الآخر قصص تمج بأشخاص نصف أحياء يطالبون بحقوقهم في الحياة ، ويمكن بتلايب « مؤلفهم » لا يدعونهم يموت قبل أن ينفخ فيهم بعض الروح ؟ إنه ليخيل إلي أحياناً أن حياتنا متصلة بحياة إنتاجنا ، وإن في أعماق كل « خلاق » شبه غريزة داخلية تدفعه إلى الانتاج البطيء أو السريع طبقاً لطول حياته أو قصرها . إنا قد بنينا أنفسنا لـ« الشيطان » التأليف ، ولن يتركنا هذا « الشيطان » في راحة إلا عندما نلفظ النفس الأخير ؟
نرفس الحكيم

وهذا الترفق في معاملة الشريف ليس نزوة شخصية ، وإنما هو وثبة علمية ، فما كان يمكن أن أكون وفياً للبحث إلا إن سارت الشاعر الذي أعرض عقله وروحه على تلاميذى . وهذه هي المزية التي أتفرد بها بين أساتذة الأدب العربي

سارت الشريف مسaire الصديق للصديق : فإن آمن آمنت ، وإن كفر كفرت . إن جند الشريف جددت ، وإن لمب لمبت . إن عقل الشريف عقلت ، وإن جن جننت . إن قال الشريف إن غاية الرجل العظيم هي الحرب ، قلت : صدقت . وإن قال : إن الحياة هي الحب ، قلت : والحب الحياة !

ولكني مع هذا عاملته معاملة الصديق الأمين فنهيته إلى عيوبه بتلطف وترفق ؛ نهيته تنبيهاً دقيقاً جداً لا يظن إليه إلا الأذكاء ، وفي بني آدم أذكاء . نهيته إلى عيوبه أكثر من ستين مرة ؛ وما أظنه يحقد علي ، لأن الصديق الذي في مثل حالى تغفر له جميع الذنوب

والشواهد في هذا الكتاب كثيرة جداً ؛ وذلك هو أسلوبى في البحث ، فأنا أشغل القارى بالشاعر الذى أدرسه أكثر مما أشغله بنفسى ، وهذه إشارة أرجو أن ينتفع بها المتحذلقون اعتمدت على طيبة بيروت وصححت ما صادفت فيها من أغلاط ، وشرحت ما يجب شرحه من الأشعار خدمة للقارى الجاحد الذى لا يفهم قيمة الوقت الذى ينفعه الشارح في تحديد المعاني ؛ وصححت الكتاب كله بنفسى تصحيحاً دقيقاً . فإن رأى فيه القارى أغلاطاً فذلك ذنب العجلة لا ذنبى . وأدخلت فنونا من الدوق على الطباعة في بغداد سيذكروها أصحاب المطابع

بغداد !

هذا كتابى ، أقدمه يمينى في تهيب واستحياء ؛ فإن رضيت عنه فذلك لطف ورفق ، وإن غضبت عليه فلست أول حسناء تجحد الجليل

اصنى في ودادى من التنكر والتقلب ما شاء لك الدلال . أما أنا فأشهد أنك صنعت بقلبي وعقلي ما تجزى عنه القاهرة وباريس !

أنت مظلومة يا بغداد ، وأنا مظلوم يا بغداد ؛ والظلم يجمع بين القلوب ، نصرك الله ونصرنى ، وورعك وورعاني ، إنه سميع مجيب .
وعليك مني السلام .
زكى مبارك